فأطرق الكاهن برأسهِ وتمتم بعض كلمات غير مفهومة

فالتفت هنري الى قومندان السجن وقال – وانت ايها اللورد هل تعرف ما هي خيانتي

فأطرق القومندان ايضاً ولم يجب

فابتسم هنري وقال – اسمعا اذاً ما سأقصهُ عليكما . انتما تعلمان ان لاسرتنا منذ القديم شعاراً خاصاً وقد نقشتُ هذا الشعار على ترسي ووضعتهُ على باب قصري . ولما كان هذا الشعار يماثل شعار الملك نفسه نسب الي جلالتهُ الخيانة وادّعى عليّ باني لم أقصد باتخاذ هذا الشعار الا لأساويه في الرفعة والمجد . – هذه هي خيانتي السياسية . . وقد قلتُ ان للملك اعواناً يخدعونه ويرفعون ذويهم الى الرتب الشريفة التي لا يستحقونها . – هذه هي اهانتي لشخص الملك . وهذه هي الذنوب التي أُساق لاجلها الى النطع . . ولكني سأزيد ذنوبي في نظركما ليظهر عدل الملك في حكمهِ عليّ : فقد سلمتُ قلبي الى الحب ، والمرأة التي أحببتُها باسم جيرالدينا وتغزلتُ بمحاسنها في حضرة الملك ورجال القصر لم تكن الا امرأة خائنة ساقطة

فلما سمعت حنة دوغلاس هذا الكلام صاحت من فؤاد مجروح وسقطت على الارض

فقال الكاهن – فهل تتوب اذاً يا ولدي عن هذه الخطيئة وتحوّل قلبك عن هذا الحب الى الله ؟

قال – انا لا اتوب فقط عن هذا الحب بل ألعنهُ . . . والان هيا بنا ايها الاب لان حضرة القومندان قد عيل صبره ، فهو يعلم ان الملك لا يجد راحةً ما دام ابناء غوفارد في قيد الحياة . . مسكين انت ايها الملك هنري

لانك تدعو نفسك أقدَر ملوك الارض ومع ذلك فان قلبك يهلع لشمار احد رعاياك ..

ثم التفت هنري الى حاكم السجن وقال – بعد ان تفرغ من مهمتك ايها القومندان وتذهب لمقابلة الملك ارجو ان تبلّغه تحيتي وتقول له : ان هنري يرجو ان تفارقك بعد الان الافكار المزعجة والاشباح المخيفة وان تجد في فراشك الراحة التي سيجدها هو في قبره .. والان سيروا بنا ايها السادة فقد حان الوقت

ومشى هنري بعظمة نحو الباب وكانت اللادي حنة لا تزال منطرحة على الارض فوثبت على قدميها وأسرعت اليه وتعلّقت به وصاحت – اني لا أدعك تذهب وحدك وانت لا تجسر ان تردّني عنك لانك أقسمتَ لي ان نحيا ونموت معاً

فدفعها هنري بغضب شديد وقال بلهجة التهديد والامر – اغربي من وجهي ايتها المرأة فانا أمنعك من اللحاق بي

فتراجعت حنة الى الوراء واستندت على الحائط وهي ترتجف وتنتحب، وقد شعرت بان هنري لا يزال سيداً لنفسها وانها لا تزال منقادة في الحب لكل اشارة منه ولا تجسر ان تخالف له امراً

وخرج هنري من الغرفة في موكبِهِ الرهيب، وبقيت حنة في مكانها حتى غاب عن نظرها ولم تعد تسمع وقع اقدامه . ولكنها ما لبثت ان سمعت صوت ضرب الطبول في ساحة السجن، فجثت تريد ان تصلِّي ولكنها لم تجد كلماتٍ تقولها في صلاتها لان شفتيها كانتا ترتعشان بشدة وانها لكذلك اذ سمعت الجرس يقرع قرع الحزن . ثم سمعت صوتاً

بعيداً علمت انه صوت هنري ولكن الطبول عادت فأخفت صوته بضجيجها، فصاحت حنة : انه يموت وانا بعيدة عنه . وفي الحال خرجت من الغرفة كأنَّ عاصفةً حملتها وطارت بها الى ان بلغت ساحة السجن ، وكانت غاصة بالمتفرجين ، فنظرت حنة واذا بهنري جاثٍ على ركبتيه على دكة مرتفعة في وسط الساحة ، والجلاَّد واقف الى جانبهِ وقد رفع الفأس بيده. فطار رشد حنة وانتفخت اوداجها وتطاير الشرر من عينيها وصارت كاللبوءة الفاقدة اشبالها ، وفي اسرع من لمح البصر جرَّدت خنجراً كان مخبوءاً في ثوبها وهجمت فاخترقت لنفسها ممرًّا بين الجمهور وبوثبة واحدة بلغت درجات النطع ، فصعدتها ووقفت بجانب الجلاَّد على مقربة من هنري ، والناس ينظرون اليها كأنَّ على رؤوسهم الطير . وكان الجلاد قد رفع الفأس بيده ولاح بها في الهواء ثم هوى بها على عنق هنري ففصل رأسه عن بدنه. وتدفق دم هنري غوفارد فلطخ ثوب حنة ، فذعرت وصاحت كالمجنونة

– لقد اتيتك يا هنري فسيجمعنا الموت . وطعنت نفسها بخنجرها فأصاب قلبها وسقطت على جثة حبيبها وهي تجود بروحها وتقول للجلاَّد – إجعلني واياه في ضريح واحد . . اني لك يا هنري غوفارد في الحياة والموت

الفصل الثاني والثلاثون

دسائس جديدة

مات هنري غوفارد فلم يبقَ مَن يعكّر صفاء الملك هنري الثامن في حياته او يزعجه في احلامه او يظهر عليه بمواهبه العقلية او ينازع ابنه تاج

الملك بعد وفاته. فتنفس الصعداء وظن ان حياته ستكون بعد الان سعيدة هادئة وانه سيقضي ما بقي منها بدعة ونعيم. غير ان الامر لم يكن كما ظن فقد لبث وجههُ مقطباً ونومهُ مضطرباً

شعر الملك بان انتقامه من اعدائهِ لم يكن كاملاً فقد قتل هنري غوفارد ولكن اباه دوق نورفولك لا يزال حياً ، وهو وان كان معتقلاً في السجن غير ان الملك لا يستطيع سبيلاً الى الراحة الا باعدامه. وكيف السبيل الى ذلك وهو لا يستطيع ان يقتلهُ الا بعد ان يجتمع مجلس الاعيان ويحكم عليه بالموت. وكان هذا المجلس بطيئاً في جميع اعماله لا ينقاد الى ارادة الملك في كل امر كمجلس الامة. ولما كان غوفارد الاب في رتبة الدوقية قضى القانون ان لا يُعاقَب الا بحكم من مجلس الاعيان

وكان الملك من جرآء ذلك في اشدّ حالات الاضطراب والحزن وقد عيل صبره وتفاقمت العلّة عليه فازداد شراسةً وكان يحتدم ويهيج لاقلّ حركة فيملأ قاعات القصر صياحاً ويوقع برجاله لاقلّ الاسباب. وكان رجال القصر يرتعدون لدى كل كلمة يقولها ويجتنبون النظر اليهِ وهو في حالة هياجه مخافة التعرُّض لغضبه وانتقامه

ولم يكن في القصر مَن لم يخشَ غضب الملك الا اربعة اشخاص وهم الملكة ويوحنا هيود والاسقف غاردنر واللورد دوغلاس. وكانت الملكة قد ضاعفت عنايتها بزوجها فلم تكن تفارقه البتة وكان يوحنا هيود يشاطرها هذه العناية بمزيد الاخلاص والامانة ويسعى للتخفيف من كرب الملك بنكاتهِ ونوادره

اما اللورد دوغلاس فكان الملك قد رثى لحاله بعد ان فقد ابنته وهي

الولد الوحيد له ، فعفا عنه وكان يظهر له كل عطف ولطف . وكان دوغلاس أصغر من الملك سناً غير ان الاحزان قد أثرت في صحتهِ فحنت ظهره وجعدت وجهه وشيبت رأسه . وكان الملك يسرُّ اذا رأى بجانبه من هو اكثر شقاء منه . غير ان دوغلاس لم يكن حزنه على فقد ابنتهِ قدر حزنه لفشل مساعيه . وكانت هذه الضربة اشدّ وقعاً على الاسقف غاردنر منها على دوغلاس . فقد رأى هذا الاسقف خيبة جميع التدابير التي تذرّع بها لخدمة الغاية التي فوّضت اليه ، فخشي ان يحتقره اتباع لويولا فيخسر مركزه في جمعيتهم

وكان الاثنان يخلوان احدهما بالآخر كل يوم بعد الحوادث المقدم ذكرها فيتأسفان معاً على ما فات ويندبان سوء حظ « الزوجة السابعة » لهنري الثامن ويستنبطان الحيل الجديدة لاغتيال الملكة انتقاماً منها على الحزن الشديد الذي ملأ قلبيهما بسببها

وفي احد الايام قال اللورد دوغلاس لصديقهِ الاسقف وكانا في خلوة — ان العلَّة قد اشتدَّت على الملك فلم يبقَ له من الحياة الا ايام معدودة وانا أخشى ان يموت فجأةً قبل ان يقيمنا وصيين على إنفاذ مشيئتهِ الاخيرة فالويل لنا اذا قضى نحبه وأفضت وكالة المُلك الى كاترينا بار ّ وأصبح رجال سيمور وزراء لها . فينبغي لنا والحالة هذه ان نتدارك الامر قبل وقوعه لئلا يعود علينا بالوبال

فأجابه الاسقف مبتسماً — لم يبقَ لنا لادراك ما نحن ساعون اليه الا وسيلة واحدة وهي ستنيلنا بغيتنا في هذا النهار ان شاء الله . انت تعلم اننا تركنا الملكة وشأنها هذه المدة فلم نتعرَّض لها بسوء ولم نشِ عليها بشيء ،

وقد كان ذلك منا حيلةً لتبديد مخاوفها وازالة كل شك من نفسها ، فاغترَّت هي بقوتها ولم تعد تحاذر شيئاً او تخشى خطراً . وقد بلغ من ثقتها بنفسها ونفوذها على الملك انها تعارضه احياناً في آرائهِ واحكامهِ ، وهذا النفوذ سيؤدي الى سقوطها ويكون وبالاً عليها . فقد أصبح الملك في حالتهِ الحاضرة كالنمر الجائع ، فهو يظمأُ الى شرب الدماء والملكة لا تستطيع احتمال ذلك منه . فسأدبر اليوم امراً يختلف فيه رأياهما ويختصمان

فأشرق وجه دوغلاس سروراً وقال — ما أغزر حكمتك ياسيدي ! فانت تريد ان تحاربهما بسلاحيهما

قال — نعم وسأُقدّم للملك فريسةً تبعث فيه الشوق الى سفك الدماء وتحمل الملكة على الاشفاق والرحمة ، فتتصدّى لمناقضة زوجها وردعهِ عن عمله ، فيقع الخلاف بينهما ونبصر حينئذٍ العراك العنيف بين النمر الشرس والحمامة الوديعة . واني اؤكد لك ان الملك يرى في سفك الدماء العلاجَ الشافي لامراضه والذريعة المثلى لراحة ضميره المعذّب . فقد قلنا له انه كلما قتل احد الهراطقة اعداء الكنيسة تُمحى له خطيئة في السماء ، وهو ميال بلا شك الى المثول امام محكمة الله غير مدنّس بشيء من الذنوب ، وهذا يقتضي الايقاع بجمهور غفير من الهراطقة . والان أستودعك الله ايها العزيز فقد حان وقت ذهابي الى مخدع الملك ، فحسبُ الملكة ما قضتهُ الى الان بجانب زوجها وهي تبتسم له وتطارحه طيّبات الحديث ، وقد جاء دوري الان فيجب ان أطرد تلك الابتسامات من شفتيها لانها هرطوقية ومن أقدس واجباتي الرعائية القضاء عليها

قال — ليكن الله معك وينجح مسعاك

قال — ان الله لا يتركنا يا ولدي لاننا لا نفعل شيئاً الا لخدمته وتمجيد اسمه العظيم . فمتى امتلأ الهوآء بأصوات المعذَّبين والهراطقة ، يوم تُشوَى اجسادهم وتتناثر لحومهم ، يكون ذلك احسن موسيقى تُرضي الله وتُبهج الملائكة في السمآء . وسيكون سرورهم وسرورنا أعظم يوم ينضمُّ الى هذه الموسيقى المطربة صوت الملكة كاترينا ايضاً .. اني ذاهب الان للجهاد المقدس فابقَ انت هنا واسأل لي من الله التوفيق والعون لنقهر هذه المرأة وننتقم منها كما فعلنا بجنة اسكيو

ثم رسم الاسقف اشارة الصليب على وجهه وسار وعلى وجهه امارات الوداعة والورع الى حيث كان الملك

الفصل الثالث والثلاثون

الملك والاسقف

— ليكن الله معك ايها الملك المعظَّم ويحفظ جلالتك المقدسة ! — قال الاسقف غاردنر ذلك وهو داخل على الملك

وكان الملك جالساً في مخدعه والملكة بازائهِ وبينهما رقعة شطرنج يلعبان عليها

وكان الملك مقطب الوجه ينظر الى رقعة الشطرنج باهتمام زائد لان الملكة كانت تتهدّده ببيادقها (١) وتوشك ان تغلبهُ

أخطأت الملكة هذه المرة اذ سمحت لنفسها ان تغلب زوجها بلعبة الشطرنج . لان هنري الثامن كان على اعظم جانب من سوء الظن

---

(١) البيادق هي حجارة الشطرنج ، واحدها بيدق

والارتياب ، فمن غلبهُ ولو بالشطرنج كان في نظره مجرماً وخائناً يحاول ان يسعى في دكّ عرشه او اختطاف تاجه

وكانت الملكة أعرَف جميع الناس باخلاق زوجها ، ولكنها – كما زعم الاسقف غاردنر – كانت واثقة من نفوذها عليه ، فاغترّت بقوتها وغاب عنها انهُ شرس الاخلاق سيّئ الظن لا يُوثَق برضاه

قضت كاترينا بارّ مع زوجها مدة طويلة وهي أطوع له من بنانه وأعرَف جميع الناس بوسائل استعطافه ورضاه ، فانقاد لها بكلّهِ ، ولم يستطع احد تغيير قلبه عليها الا احياناً قصيرة كانت تخرج الملكة فيها كل مرة منتصرة على اعدائها ، فيزداد الملك حباً لها وتعلُّقاً بهواها

وكان الملك في ساعات الفراغ يلعب وزوجته بلعبة الشطرنج ، فيجد في ذلك لذةً وفكاهةً . وكانت الملكة ماهرة في هذه اللعبة ، غير انها ارضاء لزوجها كانت تُغلَب على الدوام ، فيطير الملك بذلك فرحًا وافتخارًا وينسب ظفره كل مرة الى براعتهِ وتفننهِ

ولما جلست واياه الى رقعة اللعب في هذا النهار كرهت ان تظلّ مغلوبةً له مدى الحياة ، فأرادت ان تفوز عليه ولو مرةً واحدةً ، فاحتاطت لنفسها وأخذت تنتصر عليه شيئاً فشيئاً الى ان ترجَّح الفوز لها

وكان الملك في اول اللعب مسرورًا كعادته ، ولكنه لما رأى انكساره في اللعب قطب جبينه واخذ ينازع زوجته الغلبة بكل قوته

وكانت كاترينا منصرفة بافكارها وبصرها الى اللعب ، فلم تنتبه الى امتقاع وجه زوجها واضطرابه

وفي هذه اللحظة دخل الاسقف غاردنر ، فحيّا الملك ووقف وراءه

ينظر الى رقعة الشطرنج وقد تأكّد لديه انتصار الملكة

وكانت الملكة لا ترفع نظرها من الرقعة ، فقالت بعد قليل ووجهها طافح بالمسرة – قريباً وتنتهي اللعبة بفوزي يا زوجي العزيز

فازداد الملك غضباً ولم يحر جواباً . فقال الاسقف – صدقت جلالة الملكة يا مولاي فلا بُدَّ من انكسارك لان الملكة تتهدّدك بخطر عظيم

فذُعر الملك لدى سماعه هذا الكلام وأوَّلهُ في نفسهِ التأويل الذي أراده غاردنر . وشعرت كاترينا بالسهم الذي أطلقهُ هذا الاسقف وأصاب من الملك مقتلاً ، فندمت على عدم تنبهها للامر ولكن بعد فوات الفرصة لانه لم يعد في استطاعتها ان تُغلَب

وقال الملك وهو يكظم غيظه – حسن يا كاترينا فقد غلبتِني ، وهذه هي المرة الوحيدة التي تستطيعين ان تفتخري فيها بانتصارك على هنري الثامن

فابتسمت الملكة وقالت – ليس لي ان أفتخر بهذه الغلبة يا مولاي ، لانك قد أبديتَ لي من التساهل ما جعل الغلبة في جانبي . ان الاسد اذا لاعب شبله او غيره من الحيوانات الصغيرة الحقيرة فانه يظهر لها كل نوع من التساهل ، فهو لا يقتلها ولا يدوسها الا رحمةً وشفقةً لا عجزاً كما فعلتَ انت . فانا اشكرك ايها الاسد على تساهلك هذا لانك سمحتَ لي اليوم ان أنتصر عليك كرماً منك ولطفاً

فأشرق وجه الملك وزال عنه انقباضهُ

وكان الاسقف غاردنر يراقب امارات وجه الملك ، فلم يرضه ارتياحهُ الى كلام الملكة وخشي ان تذهب هذه الفرصة سدىً ، فقال – ان التساهل حسن ولكنه لا يليق بالملوك لانهم انما وُجدوا للعقاب ، فاذا تساهلوا

كثرت الجرائم وعمَّ الفساد

فقالت الملكة — اخطأتَ يا حضرة الاسقف ، فالتساهل فضيلة يزدان بها الملوك لانهم نواب الله على الارض ، فيجدر بهم ان يتساهلوا ويرحموا الخطاة اقتداء بالله نفسه

فهزَّ غاردنر كتفيه وأخرج من جيبهِ اوراقاً ملفوفة قدَّمها للملك وقال — رجائي ان لا تكون جلالتك على رأي الملكة والا ففي الامر خطر على سلامة المملكة . ان البشر لا يخضعون ولا يرضخون بالرحمة بل بالارهاب ، وفي يدك يا سيدي سيف النقمة والعدل فاذا لم تضرب بهِ الاشرار انتزعوه من يدك وانتقضوا عليك . فماذا تكون نتيجة تساهلك اذاً ؟

فصاحت الملكة — ان كلماتك قاسية ايها الاسقف وبعيدة عن الصواب

قالت الملكة ذلك وقد أدركت ان غاردنر انما جاء الان الى الملك ليحرّك فيهِ عاطفة سفك الدماء ، فيتسنى لغاردنر الايقاع ببعض الابرياء الذين ليسوا على مذهبهِ ، فأرادت ان تحول دون رغبته وتحمل الملك على الرحمة والشفقة ، ولكنها لم تستطع ذلك ، لان الملك كان مستاء لانتصارها عليه بالشطرنج فلم يصغِ لكلامها وشعر بميل شديد الى الانتقام وإهراق الدماء ، فتناول الاوراق من غاردنر واخذ يتصفحها واحدةً واحدةً ، ثم التفت الى غاردنر وقال — صدقتَ يا حضرة الاسقف ! ان البشر ميالون الى الشرّ والفساد فاذا عوملوا بالرحمة والشفقة تمرّدوا وجاهروا بالعصيان وفعلوا ما لا تكون نتيجته الا خراب المملكة بأسرها . وفي هذه الاوراق احسن شاهد على ما اقول : فقد مضت المدة الاخيرة ولم تضطرم نيران العذاب ولم تُنصَب المشانق فظنّ الناس اننا نائمون ، فهبّوا الى ارتكاب

الشرور والجرائم وسائر انواع الخيانة ازدراءً بنا وتهكماً بشرائعنا . ففي هذه الورقة اسم رجل من هؤلاء المجرمين تجاسر ان يقول عن الملك انه رجل بسيط وخاطئ كسائر الناس وليس ممسوحاً من الله . فيجب ان نبرهن لهذا الرجل اننا على هذه الارض مثال غضب الله لا رحمته واننا لسنا نظير أحقر الناس ما دمنا قادرين على إضرام النار لإحراقه

ثم ضحك الملك ضحكاً عالياً وقال — وفي هذه الورقة دعوى على رجلين ينكران رئاسة الملك على الكنيسة ويتهمانه بالكفر والزندقة لانهُ يدعو نفسهُ رأساً للكنيسة ونائباً عن الله ويقولون ان لوثيروس وكلفين احقُّ بهذا اللقب من الملك . حقاً اني اكون ضعيفاً وحقيراً اذا لم أُوقع بهذين المجرمين العقاب الاليم لانهما باهانتهما اياي قد أهانا الله نفسهُ

وبينا كان الملك يتصفح باقي الاوراق انتفض فجأةً فطرح الاوراق من يده ورفس الارض برجله وصاح — ما هذا ؟ فهل ساد الفساد في البلاد حتى عجزنا عن كبح جماحه والضرب على ايدي اصحابه ؟ هوذا رجل هرطوقي متعصب قد بلغ من جرأتهِ وشرّه ان يحذّر الناس جهاراً من قراءة الكتاب المقدس الذي أُلفتهُ انا لفائدة شعبي . فأظهر هذا الشقي كتابي للناس قائلاً لهم : ما هذا الكتاب الأ اختراع الشيطان وما الملك الأ صديق الشيطان والشيطان نصيره . . . فهل من سبيل بعد امثال هذه الجرائم الى التساهل ؟ وهل من سبيل الى استئصال الشرّ الأ بإنزال اشدّ العقاب بهؤلاء المجرمين ليكونوا عبرةً للجميع ؟ . . هذا الشعب شقي وبائس فهو لا يذعن للسلطة ولا يعود عن غيهِ وضلاله الا مسوقاً بالعصا ، فهو لا يعترف بقوة الملك وسلطانه الا بالاحراق والشنق والصلب وبكل انواع التنكيل . .

واني أقسم بالله ان اعاقب هؤلاء المجرمين الان بما لم تبصره عين ولم تسمع بهِ اذن . أعطني قلماً يا غاردنر لأُوقّع هذه الاوراق . اغمسهُ جيداً في المداد لان الاوامر كثيرة وانا مضطرٌّ ان أضع توقيعي ثماني مرات . . آه ما اشدّ العذاب الذي يعانيه الملوك في احتمال مثل هذا التعب العظيم

فأخذ غاردنر قلماً وناوله للملك قائلاً — ان الله يبارك تعب جلالتك لخير الامة والبلاد

واخذ الملك القلم وتهيأ ليوقّع الاوراق التي امامه ، فألقت الملكة يدها على يده وقالت — مهلاً ايها الملك ! اني أستحلفك بكل عزيز ومقدس عندك ان لا تغلب عليك الحدّة فتأمر بإعدام هؤلاء الناس تشفياً وانتقاماً منهم . أظهر عدلك يامولاي وكن اكثر رحمةً وشفقةً . دع الشمس تغرب على غيظك ، فمتى أشرقت من جديد يكون ثائر غضبك قد خمد في نفسك وحينئذٍ تحكم عليهم بعدلك . اذكر يا سيدي انك بهذا القليل من المداد تريد ان تقتل ثمانية اشخاص من رعيتك ، فتحرم الزوجة زوجها والوالدة ابنها والابن اباه . ان مهمتك عظيمة يا سيدي والمسؤولية الملقاة على عاتقك اعظم منها ، فهل من العدل ان تبادر الى مثل هذا العمل الخطير بدون تروٍ وتبصُّر

فاتقدت عينا الملك غضباً وقال — يُخيَّل لي انكِ تريدين ان تشفعي لهؤلاء المجرمين الخونة اليّ ، فكأنكِ لم تسمعي ما اتُّهموا به

قالت — بل سمعت ، ومع ذلك فاني ألتمس منك يا زوجي العزيز ان لا توقّع هذه الاوراق الان . انا لا انكر ان هؤلاء المساكين قد اخطأوا ، والانسان غير معصوم من الخطأ ، فعاقبهم بما يستوجبون . انهم قد

اهانوا شخص جلالتك ، والملك يجب ان يكون أرفع من ان تؤثر فيه التهم والوشايات ، فهو كالشمس التي تضيء على الابرار والاشرار . هم اهانوا شخصك ولكنهم أضعف من ان يؤثروا في مجدك . فعاقب المجرمين يا سيدي وارحم الذين يسيئون الى شخصك

فقال غاردنر — ليس الملك شخصاً تصل اليه الاساءة او الاهانة وانما هو فكرٌ سامٍ وخاطرٌ عظيم وجليل ، فمَن أهان الملك فكأنهُ اهان السلطة الملوكية التي رتبها الله والتي بدونها يختلُّ نظام الكون بأسره

وقال الملك — نعم ومَن أهان الملك فقد أهان الله نفسهُ . ان اليد التي تحاول ان تمسَّ تاجنا يجب ان تُقطع ، واللسان الذي ينطق باهانتنا يجب ان يُسَلّ

فقالت الملكة — اذاً اقطع ايديهم وسُلَّ السنتهم ولا تقتلهم . افحص على الاقلّ عن مبلغ صحة الجرائم المنسوبة اليهم ، فليس أسهل في هذه الايام من الوشاية على ايٍّ كان من الناس واتهامهِ بكل نوع من الكفر والزندقة ، وليس أسهل من الوقوع في حبائِل المفسدين والاشرار الذين يتحاملون على الابرياء لانهم لا يرون راحةً الا باغتيالهم وسفك دمائهم

فقال غاردنر — لو كان لهؤلاء المجرمين ايمان بالله لبسط الله عليهم حمايتهُ وردَّ عنهم كل تهمة باطلة ولم يسلِّمهم للموت

قالت — انا أعلم يا حضرة الاسقف انك لا تقبل شفاعة ولا انا اوجّه كلامي اليك بل الى الملك . انت اسقف وكاهن للاله العلي ووظيفتك ارشاد الضالّين الى الايمان وبث روح المحبة المسيحية والسلام بين الناس ، ولكنك تركتَ كل هذا وانصرفتَ الى إيغار صدر الملك على رعيته .

كان الأولى بك ان تنضمَّ اليَّ وتساعدني لاستمالة قلب الملك الى الرحمة والشفقة على هؤلاء المنكودي الحظ الذين تدعوهم مجرمين وما هم بمجرمين لانهم لا يعلمون السبيل الحقيقي الذي يؤدّي بهم الى معرفة الله، وانت تعلم ان للوصول الى الله طرقاً مختلفة ونحن لا نعلم ايها الافضل

فوقف الملك وهو يرتعد غضباً وقال — انتِ اذاً ترعمين ان الهراطقة قد يكونون على طريق يؤدّي بهم الى الله !

فقالت الملكة برزانتها المعهودة — نعم. وأقول ان المسيح نفسه دُعي مُلحداً وقُتل بتلك التهمة . وان القديس استفانوس رُجم بالحجارة وهو مع ذلك من القديسين الابرار . وأقول ايضاً ان سقراط لا يحكم عليه العدلُ الالهي بالعذاب الدائم لانه عاش قبل المسيح فلم يتسنَّ له الايمان به . وان هوراس ويوليوس قيصر وفيديوس وافلاطون ما برحوا من الرجال العظام ولو كانوا وثنيين . نعم يا زوجي وسيدي العزيز ان العقائد الدينية يجب ان يتساهل بها رؤساء الاديان والملوك ولا يرغموا الناس الى اتّباعها بالقوة القاهرة، وانما الاجدر بهم ان يستعملوا التؤدة والحلم ويحاولوا ارشاد الناس اليها بالتعليم والوعظ والاقناع والترغيب وبغير ذلك من الوسائل اللطيفة لا بالاحراق والصلب والسَلخ والشنق وبكل ما تفنن الانسان في اختراعه من انواع الموت الفظيع

فقال الملك — اذاً انتِ لا تظنين ان هؤلاء المجرمين يستوجبون الموت !

قالت — نعم لا اظنهم، فما هم الا تعساء ضلُّوا سبيل الحق فأخذوا يتلمسونه ويفتشون عنه للوصول الى الله

— يكفي ! — قال الملك ذلك وأشار الى غاردنر فدنا منه، فاستئذ

على ذراعه ومشى واياه في الغرفة بضع خطوات وهو يقول - اخطأتَ يا غاردنر في فتح باب مثل هذا البحث الخطير بحضور الملكة لانها حديثة السن تنظر الى الدنيا بغير نظرك ونظري ، وقلب المرأة كما تعلم ميال على الدوام الى الرأفة والحنان

فقال غاردنر - ولكن هذه هي الساعة المعيَّنة يا سيدي لمباحثتك في شوءون المملكة

قال - اذاً قد اخطأنا بانصرافنا عن هذه المسائل الخطيرة الى ما لا يهم . فاعذريني ايتها الملكة اذا سألتُكِ ان تَدَعينا وشأننا مع حضرة الاسقف اذ لا يجوز تأجيل النظر في شوءون المملكة

ثم قدَّم يده للملكة وسار بها الى الباب وهو يظهر اللطف والودّ . ولما انصرفت الملكة عاد هنري الى كرسيّهِ وقال لغاردنر - والان فما رأيك في الملكة ؟

قال - يلوح لي انها لا تحسب هوءلاء الاشقياء مجرمين وهم قد استهانوا بكتابك المقدس وازدروه ودعوه اختراع الابالسة . وهي ميَّالة كل الميل الى الهراطقة الذين لا يعترفون برئاستك على الكنيسة

قال - وأظنها لو لم تكن ملكةً لانضمَّت الى الهراطقة وجاهرت بمعتقدهم

قال - بل هي منضمَّة اليهم معتقدة اعتقادهم الان ايضاً وهي في مركزها الحالي لا تخشى خطراً ولا تحسب لاحدٍ حساباً . ولذلك فهي تقول وتفعل ما لو قالهُ او فعلهُ سواها لحُسب له ذلك جرماً بل خيانةً فظيعة

قال - وما الذي تقولهُ وتفعلهُ ؟ صرّح بما يجول في خاطرك يا غاردنر

ولا تخفِ عنِي شيئاً لانه يجدر بي ان أقف على جميع حركات زوجتي وسكناتها

قال – ان الملكة يا مولاي نصيرة الهراطقة والمصلحين وصديقتهم الحميمة ، فهي تساعدهم سرًّا وتسمع اقوال معلّميهم الكذبة بمزيد الرغبة والارتياح وترّحب بهم وتقول ان في تعاليمهم كل الصلاح والحق والهدى وان لوثيروس نور ارسلهُ الله لهداية الناس ونشر ألوية الحق والفضيلة والسلام وتبديد ظلمات الجهالات والاوهام ، ولوثيروس هذا كما لا يخفى على جلالتك هو الذي بعث اليك بتلك الرسائل البذيئة المتضمنة كل اهانة واحتقار لشخصك المقدس وعظمتك الملوكية

وكانت هذه الكلمات قد زادت الملك هياجاً وحنقاً فقال – أصبتَ ، ان كاترينا هرطوقية ! انها صديقة الاشرار والكفرة ! ونحن قد أقسمنا ان نبيد هوءلاء الهراطقة بدون استثناء

قال – ولكن الملكة واثقة من سلامتها فهي تعلم ان انتقامك لا يمسّها لانها ملكة وتعتقد ان الحب في قلب زوجها اقوى من ايمانه

قال – انها لَعلى ضلال مبين اذ لا مفرّ لاحد من غضبي اذا استوجبهُ وليس للحب في قلبي ان يقف في سبيل الواجب المقدس الذي لا أحيد عنه طرفة عين

ثم حانت من الملك التفاتة فرأى رقعة الشطرنج فاكفهرَّ وجههُ وقال – ان كاترينا متكبرة عنيدة وَقِحَة تجسر ان تقاوم ارادتنا وتناقض كلامنا ، فيجب ان نكسر من عنادها ونخضد شوكتها ونضطرَّها الى الاذعان والطاعة . ويجب ان نظهر للعالَم ان هنري الثامن لا يزال قوياً قادرًا ذا